الفصل التاسع عشر

الريجنسي

اليوم في ليلة 7 أغسطس/آب 2008م، كان ديمتري ميدفيديف الرئيس الثالث لروسيا، على مركب شراعي على نهر الفولغا مع زوجته سفيتلانا، وابنهما إيليا، الذي كان في سن المراهقة. لقد كانت عطلة عمل في شهر العطل القصير. وكان ميدفيديف قد قضى يومًا في المدينة القديمة قازان، عاصمة تتارستان، وهي المنطقة التي غزاها إيفان الرهيب في القرن السادس عشر، واطلع هناك على استعدادات الجامعة، والمنافسة الرياضية الدولية الجماعية البيانيالية التي ستقام في صيف عام 2013م، وتعد بروفة لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي بعد ثمانية أشهر. وكان سافر في اليوم الماضي إلى تشوفاشيا، المنطقة المجاورة، حيث ناقش خططًا لإنشاء شبكة من المكتبات الحديثة. وفي صباح اليوم الذي سبقه حضر جنازة المنشق السوفييتي ألكسندر سولجينتسين، الذي توفي في موسكو في 3 أغسطس/آب، وهو الذي نفذ إعادة تأهيل شاملة للثقافة ما بعد الدولة السوفييتية، وكان معجبًا بفلاديمير بوتين[1].

ميدفيديف كان قد مضى عليه في الرئاسة ثلاثة أشهر، ولكنه بدا ببساطة وكأنه يحمل أعباء نائب أول لرئيس الوزراء يفتقر إلى الجاذبية، وليس القائد العام لدولة نووية مسلحة ناهضة، وكان انتخابه في مارس/آذار لا يزيد الشكوك أكثر من تلك التي كانت قبل أربع سنوات في انتخاب بوتين، مع أنه ليس لديه قاعدة سياسية خاصة به، أو أي برنامج سياسي خاص به، وليس لديه تفويض أيضًا من شعب متعطش للتغيير؛ على العكس من ذلك؛ استقرت

رئاسة ميدفيديف على فرضية أن الشعب لا يريد تغييرًا وإنما الاستقرار، ولو أُعطي الناخبون الخيار لاختاروا بكل تأكيد بوتين مرة أخرى، لكن قبلوا به وريثًا لبوتين بناء على رغبة هذ الأخير، وهكذا تأهل ميدفيديف بفوز مقنع في الانتخابات المدارة، التي شهدت معارضين بارزين لحكم بوتين، كان منهم ميخائيل كاسيانوف وغاري كاسباروف، اللذان منعا من تسجيل اسميهما في قائمة الترشيح، لأنهما كانا في انتخابات مجلس الدوما في ديسمبر/ كانون الأول 2007م.

كاسباروف- على الرغم من شهرته وموارده المالية- لم يستطع أن يستأجر قاعة كبيرة تكفي لإقامة مهرجان انتخابي كما هو مطلوب وفق القانون؛ وكان كاسيانوف غير مؤهل؛ بتهمة أن الحملة كانت قد (زورت) أكثر من 13 في المئة من التوقيعات اللازمة لترشحه؛ والمرشح الليبرالي الآخر، أندريه بوغدانوف، لم يواجه أيًّا من هذه العقبات مع توقيعاته، وكان محللًا سياسيًّا وماسونيًّا حرًّا يتمتع بدرجة عالية من الغموض، وقد انتُخِب في العام السابق بصفته المعلم الكبير (غراند ماستر)، للبيت الكبير (غراند لودج) روسيا، وقد دبر الكرملين ترشيحه احتياطًا في حال لم يكلف أحد نفسه عناء الترشح[2].

ميدفيديف أدى الدور المنوط به متحاشيًا الحملة المجزأة، ورفض مناقشة منافسيه، أمثال بوغدانوف العجوز الذي تحدى بوتين في عام 2004م، وآخرين: الشيوعي غينادي زغانوف، والقومي الساخر فلاديمير جيرينوفسكي. وكان- ميدفيديف- يكتفي بالاطلاع على مهام نائبه الوزارية، وقد كرمته القنوات التلفازية الحكومية، مع ظهيره الذي لم يبتعد بتاتًا عن المشهد، فبوتين هو من اختاره، ولذلك لن ينافسه أحد، وهو ولي العهد (تساريفيتش- tsarevich)، الذي ينتظر المباركة الشعبية له.

كانت الحملة السياسية قصيرة جدًّا، حتى إن ميخائيل جورباتشوف وبخ الكرملين علنًا، قائلًا: «هناك أمر خاطئ في انتخاباتنا»، لكنه كان صوتًا أخلاقيًّا لسلطة من الماضي انحسرت وفقدت مصداقيتها، ولم يعره الاهتمام أو يستوعبه إلا قليلون، لكن بكل تأكيد ليست

وسائل الإعلام الحكومية[3]. عندما تم فرز الأصوات، جاء زغانوف في المرتبة الثانية بـ 18 في المئة من الأصوات، وحصل بوغدانوف على أقل من مليون صوت، وهو عدد أقل في الواقع من عدد أوراق الاقتراع التالفة أو الفارغ، ليصبح ميدفيديف من ثم، الذي ليس لديه خبرة سياسية خاصة به، أصغر رئيس منتخب، إذ كان يبلغ فقط ثلاثة وأربعين عامًا، وفاز بـ 71.2 في المئة من الأصوات، وهو الرقم الذي يذكِّر بالنسبة 71.9 في المئة التي حصل عليها بوتين قبل أربع سنوات.

منذ لحظة توليه منصبه في شهر مايو/أيار، كافح ميدفيديف للخروج من ظل الرجل الذي أوصله إلى قمم السلطة، وإذا كان يلتسين قد غاب بكل هدوء عن الأضواء العامة من اليوم الذي عيَّن فيه بوتين، فإن بوتين يمضي، اليوم، بكل ثقة مع تنصيب ميدفيديف، وقد افتتح الحفل في الكرملين بخطاب وداع غير مسبوق، أكد فيه على نحو لا لبس فيه للنخبة المجتمعة في القصر الكبير، أنه ليس لديه النية ليختفي من الساحة العامة.

أمل ميدفيديف أن يترك انطباعًا سريعًا على الساحة العالمية؛ بزيارة ألمانيا، الشريك الأقرب تجاريًّا إلى روسيا في أوروبا، لكن سبقه بوتين بزيارته الرسمية الأولى الخاصة لفرنسا. وقال رئيس لجنة الشؤون الخارجية في المجلس الاتحادي، ميخائيل مارغيلوف، لمسؤول أمريكي، خلال زيارته، إن ميدفيديف طالب موهوب لم يصقل بعد؛ إنه «الطالب الذي تعلم من أساتذته»، لكن «عميد الكلية» يظل بوتين[4]، وقال إن بوتين أراد حقًّا التنازل، ولو تدريجيًّا، عن واجبات رئيس الدولة، والشؤون الخارجية خاصة، لكن ميدفيديف جاهد لتوسيع سلطته على بيروقراطية تكيَّفت بعد ثماني سنوات على الاستجابة لبوتين.

مع ذلك غيَّر ميدفيديف، بمزاجه المعتدل المكتبي، من لهجة الكرملين على الأقل، فخلال حملته الانتخابية، وفي الأسابيع الأولى من ولايته، تحدث عن الحريات المدنية، والتحديث الاقتصادي، وضرورة وضع حد للفساد المستشري، و(العدمية القانونية) التي ميزت السياسة والمجتمع الروسي، وقد كان بوتين تقدَّم بتعهدات مماثلة، لكن ميدفيديف

أثبت أنه أقل عدوانية، وأقل اشتراطات، وبدا حريصًا على تقديم صورة مختلفة للقيادة، لإثبات أن الانتقال كان موضوعيًّا، وليس رمزيًّا بحتًا.وإذا كان بوتين ساكنًا وجافًّا، فقد بدا ميدفيديف لطيفًا ومنفتحًا، وابتهج لاستخدامه الأجهزة الحديثة (أعطاه ستيف جوبز آي فون في عام 2010م)، وأنشأ حسابات خاصة به على مواقع التواصل الاجتماعي، نشر فيها صورًا التقطها هوايةً.

على الرغم من أهمية بوتين رئيسًا للوزراء، بدأ كثيرون يعتقدون أن ميدفيديف سيسعى لتنفيذ إصلاحات ليبرالية أخفق بوتين في تحقيقها، وأحد أولئك الذين وجدوا الأمل في وعد ميدفيديف، وكان محتجزًا في زنزانة في سيبيريا: ميخائيل خودوركوفسكي، وكان وقتها مؤهلًا للحصول على الإفراج المشروط، والتمس محاموه في يوليو/تموز الإفراج عنه في وقت مبكر، إضافة إلى مناشدة أخرى من أمريكي سعى ليخلف جورج بوش في رئاسة الولايات المتحدة: باراك أوباما.

ما إن بدأ تأرجح قارب ميدفيديف الرقراق على نهر الفولغا في تلك الليلة من شهر أغسطس/آب، حتى بدت رئاسته على أعتاب عصر جديد من التفاؤل، ولكن بالمقابل كاد يواجه التحدي الأعظم له وهو لم يصل وقتئذ إلى مئة يوم في منصبه.

في الساعة الواحدة من صباح يوم 8 أغسطس/آب، تلقى ميدفيديف اتصالًا هاتفيًّا من وزير الدفاع أناتولي سيرديوكوف، يخبره أن الحرب قد اندلعت في الخاصرة الجنوبية لروسيا؛ إذ بدأت قوات مسلحة من جورجيا، يقودها ذو الميول الغربية ميخائيل ساكاشفيلي، هجومًا جويًّا وبريًّا على المنطقة الانفصالية في أوسيتيا الجنوبية، وكان التوترات مع أوسيتيا الجنوبية وإقليم أبخازيا قد استمرت طوال العام، وكلتاهما انفصلتا عن جورجيا خلال صراعات عنيفة وقصيرة في التسعينيات عقيب انهيار الاتحاد السوفييتي، وظلتا في طي النسيان الدبلوماسي منذ ذلك الحين، معترفًا بهما على أنهما جزء من جورجيا لكنهما في

الواقع دويلتان مستقلتان تمولهما روسيا وتسعيان إلى التقرب منها، وقد أرسلت روسيا قوات حفظ السلام إلى كلتا المنطقتين تحت راية الأمم المتحدة.

وفي أعقاب إعلان استقلال كوسوفا عن صربيا، في فبراير/شباط 2008م، زاد بوتين المساعدة للمنطقتين، وكان أحد آخر أعماله الرسمية في الرئاسة أن أمر بتعزيز قوات بعثة حفظ السلام الروسية الموجودة في أبخازيا للإشراف على إعادة بناء السكك الحديدية التي كانت ذات يوم متصلة بسوتشي، ولكن منذ سقوطها أصبحت في حالة سيئة، وأصبح مصير المنطقتين ضمن اهتمامه الشديد في الأسابيع الأخيرة من حكمه للبلاد، بعد المواجهة المتوترة في بوخارست مع الرئيس بوش وقادة الناتو الآخرين في مناقشتهم حول دعوة جورجيا (وأوكرانيا) للانضمام إلى التحالف العسكري.

في صيف عام 2008م، تبادلت روسيا وجورجيا الاتهامات بأن الطرف الآخر يعتزم شن غزو لحل ما أصبح يعرف باسم (الصراعات المتجمدة)، وأجرى ميدفيديف سلسلة اجتماعات مع ساكاشفيلي، الذي أعرب عن أمله أيضًا أن تشهد رئاسته تحولًا في المواجهات المفتوحة مع بوتين والتي أعقبت قيام (الثورة الوردية)، ومن ذلك الحظر التجاري في عام 2006م بحجة إلقاء القبض على أربعة عملاء من المخابرات الروسية. اقترح ساكاشفيلي تسويات سياسية للمنطقتين، وبدا أن ميدفيديف في البداية موافق عليها، لكن عندما التقيا في كازاخستان في شهر يوليو/تموز شعر بأن ميدفيديف لم يعد يرغب في مناقشتها، كما لو أن ثمة سيطرة ما عليه من قبل قوى أخرى في موسكو، وهذه القوى هي بوتين[5].

يبدو أن الصراعات لا مفر منها، وقد كان الروس على استعداد لذلك تمامًا، مع أنهم توقعوا أن تكون في أبخازيا لا في أوسيتيا الجنوبية، وكان الجيش قد وضع حقًّا خططًا للتدخل، واعترف بوتين في وقت لاحق أن الخطط وضعت سابقًا للقوات، في وقت مبكر من عام 2006م. في الصيف، وبناء على أوامر ميدفيديف، نفذ قادة القوات تدريبات واسعة في شمال

القفقاز، على مسافة قريبة من أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، الخدعة التي أصبحت إشارة إلى بدء العمليات العسكرية المقبلة في روسيا.

ومع ذلك، كان ميدفيديف في تلك الليلة متفاجئًا ومشككًا في التقرير العاجل الذي عطَّل رحلته النهرية؛ وقال لسيرديوكوف على الهاتف: «يجب علينا التحقق من هذا»، وسأله: «هل أصيب ساكاشفيلي بالجنون؟ قد يكون مجرد عمل استفزازي، وربما يعاني ضغوطًا عصبية، يريد اختبار الأوسيتيانيين وأن يرسل لنا نوعًا من الرسائل»، ثم طلب من الوزير أن يتصل به ثانية في وقت لاحق.

غادر بوتين موسكو متوجهًا إلى بكين حيث خطط- وإن لم يكن رئيسًا للدولة- أن يحضر في اليوم التالي حفل افتتاح دورة الألعاب الأولمبية الصيفية مع عشرات من الزعماء الآخرين، ومن بينهم الرئيس بوش. اتصل سيرديوكوف بميدفيديف بعد ساعة ليقول له إن التقارير كانت صحيحة، وكانت جورجيا قد بدأت بقصف مدفعي على عاصمة أوسيتيا الجنوبية، تسخينفالي، فختم ميدفيديف: «حسنًا، سأنتظر ما يستجد من معلومات».

ادعى أنه لا يستطيع الاتصال مع بوتين في بكين على خط هاتفي آمن، وقد شعر بالحاجة إلى الاتصال ببوتين إذ إنه غير متأكد من زج القوات الروسية في معركة خارج الحدود الروسية للمرة الأولى منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وظل تردده هذا ملازمًا له مدة طويلة، وأخيرًا اتصل سيرديوكوف للمرة الثالثة، وكان قد سقط صاروخ على خيمة كاملة من قوات حفظ السلام الروسية، وأخبره أنه قد «قتل كل من في الخيمة»، لا بد أن يكون هذا من قبيل المبالغة، وهو الخبر الأول من بين عديد من الأخبار التي سوف تتوالى في الأيام التالية[6]، لكن الحقيقة هي أن القوات الروسية وعملاءها من ميليشيا غير نظامية في أوسيتيا الجنوبية كانوا يتعرضون لاعتداء. وبعد أكثر من أربع ساعات من بدء سقوط الصواريخ على تسخينفالي، أصدر ميدفيديف أخيرًا أوامر بالذهاب إلى الحرب؛ فأخبر سيرديوكوف: «ردوا عليهم بالمثل»، ثم سافر على الفور إلى موسكو.

حين وصل ميدفيديف إلى موسكو كانت الكتائب الجورجية تتحرك في أوسيتيا الجنوبية، وبدأت الطائرات الروسية بالقصف لا داخل المنطقة فقط، وإنما في جورجيا نفسها، على أمل إحباط تقدم قواتها مقدمًا. وصل خبر الهجوم الجورجي إلى بوتين في بكين، وكان غاضبًا من ساكاشفيلي في المقام الأول، ولكنه غضب أيضًا من ميدفيديف؛ «لافتقاره إلى سرعة اتخاذ القرار»[7]، ثم تحدث للصحفيين صباحًا، وقدَّم أول تصريح علني بشأن الأزمة، في الصين، وتعهد بأن ترد روسيا على التوغل الجورجي، ثم أجرى اتصالات متكررة بميدفيديف، الذي اجتمع صباح يوم 8 أغسطس/آب ومجلس الأمن الاتحادي[8].

كانت الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم نفسه عندما أدلى ميدفيديف بأول تصريح علني بعد تصريح بوتين، وأعلن أن جورجيا انتهكت القانون الدولي، وارتكبت عملًا من أعمال العدوان التي أزهقت حياة كثيرين من «المدنيين والنساء والأطفال والمسنين، ومن بينهم قوات حفظ السلام الروسية الذين يموتون اليوم في أوسيتيا الجنوبية، والغالبية منهم من مواطني الاتحاد الروسي»، وقال: «وفقًا للدستور وقوانين الاتحاد، وبصفتي رئيسًا للاتحاد الروسي، فمن واجبي حماية أرواح مواطني روسيا وكرامتهم أينما وجدوا»[9]، وبحلول منتصف اليوم اجتاحت القوات الروسية الحدود.

كان الرئيس بوش أيضًا في بكين عندما همس أحد مساعديه في أذنه أن (الهجوم الروسي) قد بدأ في جورجيا[10]، وكان حينها واقفًا في الطابور في حفل استقبال دبلوماسي في قاعة الشعب الكبرى لتحية الرئيس الصيني، هو جين تاو، وكان بوتين واقفًا أمامه أيضًا ليس بعيدًا عنه في الطابور، لكن البروتوكول يقتضي أن يتحدث بوش إلى نظيره الرئاسي أولًا، لذلك انتظر إلى أن عاد إلى الفندق الذي يقيم فيه ليتصل بميدفيديف، وطلب إليه محذرًا وقف الهجوم المضاد، وأضاف قائلًا: «إننا ذاهبون لنكون معهم»، مشيرًا إلى الجورجيين.

ما لم يفهمه الرئيس بوش هو أن الروس يلقون باللوم على إدارته في تأجيج الصراعات، فهو وإن لم يعط الضوء الأخضر لخطة ساكاشفيلي للاستيلاء على أوسيتيا الجنوبية، كما

يتوقع الروس، فقد دعم ساكاشفيلي بالتدريب العسكري، ووعده بعضوية الناتو في قمة بوخارست في أبريل/نيسان، على الرغم من تحذيرات بوتين الشخصية له بأن دعوة كهذه تعد استفزازًا لروسيا. وما لم يفهمه ساكاشفيلي هو أنه على الرغم من بذل جهود كبيرة بغية كسب الأمريكيين، وإشادته ببوش، وإرساله قواته للعمل في العراق، لم تكن الولايات المتحدة ولا حلف شمال الأطلسي على استعداد لمساعدته في الحرب ضد روسيا؛ ومن ثم فقد دفعت جورجيا ثمنًا غاليًا لسوء التقدير هذا.

في حديثه مع بوش، قارن ميدفيديف ساكاشفيلي بصدام حسين، وأخبر بوش أن الجورجيين قتلوا حقيقة 1500 شخص، وهي مبالغة كبيرة[11]، وكان واضحًا اليوم أن روسيا ليس لديها نية للتراجع. واجه بوش في نهاية المطاف بوتين في بكين في ملعب (عش الطائر) حين كانوا ينتظرون افتتاح دورة الألعاب الأولمبية في احتفال تلك الليلة. جلسا في الصف نفسه من مقاعد كبار الشخصيات، وطلب بوش إلى زوجته وملك تايلاند التنحي حتى يتمكن من الجلوس بجانب بوتين لتوجيه تحذير له، فنهض بوتين من مقعده، مع مترجمه الذي مال معه برعونة، وجلس أعلى منه، حتى يضطر بوش الأطول منه أن يجلس على نحو لائق، قال له إن ساكاشفيلي مجرم حرب، فأجابه بوش: «كنت قد حذرتك مرارًا أن ساكاشفيلي دمه حار»، فرد بوتين: «أنا دمي حار أيضًا». كتب بوش في وقت لاحق أنه نظر إلى الخلف محدقًا بالرجل الذي لم يلتق أي زعيم في العالم آخر غيره مثلما التقاه، باستثناء توني بلير، وقال إنه بعد أن كان يأمل في إقامة علاقة جديدة مع روسيا، البلد الذي سيتغلب على المخاوف المتبادلة وشكوك الحرب الباردة، أدرك أنه أخطأ في الحكم على الرجل الذي التقاه للمرة الأولى في سلوفينيا في عام 2001م. قال بوش: «لا، يا فلاديمير، أنت دمك بارد»[12].

بعد اجتماعه بـ(هو جين تاو) صباح ذلك اليوم عقب حفل الافتتاح، غادر بوتين بكين وعاد إلى روسيا، لا إلى موسكو، ولكن إلى المكان الذي ستنطلق منه القوات الروسية الزاحفة، ووصل مساء السبت إلى مقر الجيش الـ58، في فلاديكافكاز، عاصمة أوسيتيا الشمالية، الجمهورية الروسية على المنحدر الشمالي للقفقاز التي سُلخت عن زميلاتها

في الجانب الجورجي بقرار من جوزيف ستالين. وكان هو الذي ظهر على وسائل الإعلام الحكومية يتلقى آخر المستجدات العسكرية من الجنرالات الذين يرتدون الزي العسكري على الأرض، في حين كان ميدفيديف يتلقى توجيهات نادرة من مكتبه في الكرملين.

اتهم بوتين جورجيا بالتجرؤ- بتشجيع من الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي- على التهام أوسيتيا الجنوبية، واليوم ستفقدها إلى الأبد. قال بوتين غاضبًا: «ما يحدث في جورجيا هو إبادة جماعية»، مبالغًا في حقيقة الواقع على الأرض[13]، وكانت الدبابات الروسية في ذلك الوقت وصلت إلى تسخينفالي، ثم تقدمت خارج أوسيتيا نفسها نحو مدينة غوري الجورجية، مسقط رأس ستالين، وحاصرت السفن الحربية الروسية ميناء بوتي، إلى الجنوب من الحدود مع أبخازيا.

القوات الجورجية، على الرغم من سنوات التجهيز الأمريكي والتدريب، انهارت في حالة من الفوضى، غير قادرة على التواصل بصورة فعالة؛ لأن الروس شوشوا تغطية الهاتف الخليوي أو عطلوها، وهو الوسيلة الوحيدة للاتصال، وعليه؛ طلب ساكاشفيلي، الذي أصبح في وضع مهين، المساعدة. فأرسلت الولايات المتحدة ألفي جندي جوًّا إلى جورجيا، كانوا في العراق جزءًا من الحرب الأمريكية هناك، وبعث الرئيس بوش في وقت لاحق مساعدات ومعدات إضافية، لكن اتضح أيضًا أن الولايات المتحدة لن تقف إلى جانب جورجيا عسكريًّا؛ إذ إن أكثر من مئة مستشار عسكري أمريكي من الذين بقوا في جورجيا بعد تدريبات الصيف انسحبوا؛ لتجنب التورط في القتال. أما القوات المتصدعة لجورجيا فتراجعت أمام الزحف الروسي نحو العاصمة تبليسي، التي كانت نفسها تحت القصف، ولم يبق أمام ساكاشفيلي من خيار سوى أن يلتمس السلام.

رجع بوتين- الذي يحظى باحترام ظاهري- إلى تلميذه لكونه القائد العام، لكن النظام بأكمله- البيروقراطيين والجيش والإعلام- تكيَّف مع دوره زعيمًا قياديًّا، ويحاول أن يحافظ على صورة أن ميدفيديف هو المسؤول. وكان بوتين نفسه غير قادر أو غير راغب في التراجع

إلى الخلف، يعطي التعليمات في اجتماعات متلفزة خلال الأزمة، وقد تجاوزها ميدفيديف بكل إخلاص. في العلن سعى بوتين إلى تأكيد مشاركة ميدفيديف البارزة، أما في الجلسات الخاصة فكان يتغطرس ويستبد برأيه، ولا يزال القائد الآمر الناهي.

عندما سافر الرئيس الفرنسي، نيكولا ساركوزي، إلى موسكو للتوسط من أجل وقف إطلاق للنار في 12 أغسطس/آب، وجد ميدفيديف هادئًا ومتفائلًا، وقادرًا على التفاوض، وقد حضر بوتين الاجتماع أيضًا لكنه كان متكلفًا وفظًّا يغلي غضبًا من ساكاشفيلي حتى بدا عِداؤه له عداء شخصيًّا[14]. ضغط ساركوزي على الروس لإنهاء الغزو الذي يبدو اليوم متجهًا بتصميم إلى العاصمة الجورجية وإسقاط رئيسها. وتحدث وزير الخارجية الروسي، سيرجي لافروف، مع وزيرة خارجية بوش، كوندوليزا رايس، كثيرًا مطالبًا بإزالة ساكاشفيلي عن السلطة شرطًا للسلام[15]، وفي حديثه مع السفير الفرنسي قلل من شأن ميدفيديف، حتى عندما اجتمع الزعيمان في الكرملين لحل للنزاع[16]. ساجل ساركوزي أن العالم لا يقبل بإسقاط رئيس منتخب، لكن هذا سيزيد من غضب بوتين؛ الذي قال: «ساكاشفيلي... سأعلقه بالكرات»، وكان قد اشتعل غضبًا على نحو أذهل الرئيس الفرنسي الذي تساءل: «أتريد أن تشنقه؟»، أجاب بوتين: «لمَ لا؟»، بدا مشاكسًا، وقال: «الأمريكيون شنقوا صدام حسين». وأراد ساركوزي أن يهدئ بوتين حين سأله: وهل تريد أن تدخل التاريخ كما دخله بوش[17].

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وبعد أن توجه ساركوزي إلى العاصمة الجورجية لإبرام اتفاق ساكاشفيلي، أعلن ميدفيديف وقف إطلاق النار في اليوم الخامس من النزاع، وقد ظهر وحده في الكرملين، واعتمد لهجة بوتينية ليعلن أن «المعتدي قد عوقب»، وقد بدا شاحبًا ومتعبًا. وعلى الرغم من وقف إطلاق النار، عززت القوات الروسية مواقعها في الفراغ الذي نجم عن هزيمة الجورجيين، في حين انطلقت ميليشيات أوسيتيا الجنوبية بحملة من النهب والسلب لمنازل القرويين الجورجيين داخل المنطقة، وفي كثير من الأحيان تحت أعين الروس[18].

بعد يومين من وقف إطلاق النار، توجهت كوندوليزا رايس إلى جورجيا لتقديم تعهد بالدعم السياسي والإنساني من الولايات المتحدة، فاندفعت المدرعة الروسية شرقي العاصمة، ووقفت على مسافة 25 ميلًا فقط من حدود مدينة تبليسي. القوات الروسية الأخيرة لم تنسحب من الأراضي الجورجية إلا بعد شهرين، وحتى ذلك الحين بقيت التعزيزات خلف أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا. وفي 26 أغسطس/آب، حين كان لا يزال يجري مسح مخلفات الحرب، أعلن ميدفيديف أن روسيا سوف تعترف بالمقاطعتين الاثنتين على أنهما دولتان مستقلتان. واستشهد هو وآخرون بسابقة كوسوفا، التي أعلنت من ستة أشهر الاستقلال قبل أن يقول الروس إنها غير شرعية.

على الرغم من العيوب الواضحة في قواتها، فقد غذت الحرب الحماسة الوطنية في روسيا، وضخمتها وسائل الإعلام الرسمية؛ فكانت تمجد أفعال المحررين الروس وتشوه صورة العدو بطريقة لم تشهدها منذ الحرب الوطنية العظمى؛ وكان المجد الذي أسهم به بوتين لا يقل عن المجد الذي أسهم به ميدفيديف، لأنه كان من الواضح للجميع أنه لا يزال الزعيم الأسمى.

شغل ميدفيديف الرئاسة بسلطة ضئيلة؛ لسبب بسيط هو أن بوتين أخذ سلطات الكرملين معه، إضافة إلى أخذ كثير من موظفي الرئاسة لمكتب رئيس الوزراء الكائن في البيت الأبيض في الطرف المقابل من نوفي أربات من الكرملين. بقي ميدفيديف رئيسًا اسميًّا للدولة، وكان مضطربًا في تعامله مع الشؤون الخارجية؛ لأنه كان عليه أن يدقق أي قرارات أساسية مع رئيس وزرائه. وكانت جهود ميدفيديف الخاصة بمحاكاة النغمة العدوانية ورباطة الجأش التي كان يتمثلها بوتين ببراعة، تتسبب له في كثير من الأحيان في الحرج.

في اليوم الذي انتخب فيه باراك أوباما في الولايات المتحدة في نوفمبر/ تشرين الثاني 2008م، احتفى العالم باقتراب نهاية عهد بوش الذي تميَّز بالعداء الأمريكي الجامح، وألقى ميدفيديف أول خطاب وطني له منذ أن تولى منصبه. فبعد العلاقات العدائية في نهاية

رئاسة بوش، التي رأى بوتين أن الولايات المتحدة حرضت في أثنائها على الحرب في جورجيا لتعزيز فرص جون ماكين خصم أوباما، قد تكون هذه لحظة ترحيب بتغيير الإدارات. وعندما تحدث ميدفيديف في قصر الكرملين الكبير، لم يأت على ذكر اسم أوباما، ولكنه ألقى باللوم على الولايات المتحدة التي أججت الحرب في جورجيا، وهدد بنشر صواريخ بالستية في كالينينجراد- الجيب الروسي في أوروبا الشرقية الذي ضمته روسيا كإتاوة بعد الحرب الوطنية العظمى- إذا ما نشر الأمريكيون نظام الدفاع الصاروخي في أوروبا، وبدلًا من أن يظهر ميدفيديف تشددًا في التفكير، بدا غير قادر على تمييز الأشياء، وليس من الواضح هل أُخذ تهديده على محمل الجد.

السياسة الخارجية لروسيا كانت غامضة وغير عملية منذ عهد يلتسين، ولكن مع اثنين من مراكز القوى السياسية أصبحت حتى أكثر من ذلك بكثير. اعتذر ميدفيديف عن تصريحاته خلال زيارته الأولى إلى واشنطن بعد أسبوعين، حيث التقى الرئيس بوش، وإن لم يكن الرئيس الشاب المنتخب، وادعى أنه كان مجرد خطأ غير مقصود تقديم تحذيره الاستفزازي في اليوم الذي كان فيه قادة العالم يهنئون باراك أوباما، وقال على نحو غير متوقع: «مع كل احترامي للولايات المتحدة، لقد نسيت تمامًا الحدث السياسي الهام الذي حدث ذلك اليوم»، وعقب: «ما من غرض شخصي هنا»[19]. وكما هو الحال مع الحرب في جورجيا، بدا ميدفيديف وقد زلت قدمه؛ أو قدم بوتين.

وجاءت الضربة القاضية الثانية للرئاسة الوليدة لميدفيديف بعد أسابيع فقط من انتهاء الحرب في جورجيا. ففي عهد بوتين كان ثمة مفاجأة بالزيادة المطردة في عائدات النفط والغاز التي حفزت الازدهار الاقتصادي في البلاد، وهو ما أدى إلى ارتفاع مبيعات التجزئة في كل شيء؛ من السيارات الأجنبية إلى الأثاث والمواد الغذائية، ونما الاقتصاد بمعدلٍ يقارب الـ 7 في المئة سنويًّا خلال رئاسة بوتين، الذي كان قد سدد الديون الخارجية للبلاد، وجمع مئات المليارات من الدولارات في احتياطيات العملة، وقاوم الضغط لينفق بكل حرية، وأنشأ صندوق الاستقرار الذي يحمي البلاد من أي تراجع، وهو الآن قد تولى منصب رئيس

الوزراء ويتصرف وكأنه إرثه الأكبر الذي لا رجعة فيه. لكن في عام 2008م بدأ الاقتصاد الروسي بالتباطؤ، تزامنًا مع عملية الانتقال السياسي، ولكي يواجه ارتفاع التضخم، سعى رئيس الوزراء الجديد إلى فرض إرادته على السوق وعلى القلة (الأوليغارشية).

وفي يوليو/تموز، بسبب الشكاوى من المديرين التنفيذيين للطاقة من ارتفاع تكاليف الصلب لخطوط الأنابيب، عقد اجتماعًا لصناعة المعادن في نيجني نوفغورود، وكان الغرض منه واضحًا عندما خص به الملياردير، صاحب أكبر مصنع للصلب في روسيا (ميتشيل)، لبيعه الفحم الحجري في السوق المحلية بأسعار مرتفعة أكثر من الخارج ليتجنب الضرائب. (إيجور سيتشين هو الذي لفت انتباهه بسبب الضغط الاقتصادي الذي كانت تعانيه روزنفت). ارتكب إيجور زيوزين، صاحب الشركة- بضغط من العملاء والمنافسين- خطأ بتخطي المؤتمر ومراجعة مستشفى أمراض القلب، فكان رد بوتين قاطعًا، وأشار إلى ضرورة أن تتولى السلطات المناهضة للاحتكار، بل والمدعي العام، التحقيق بشؤون الشركة، وأضاف: «لا ريب أن المرض هو المرض، ولكن أعتقد أنه يجب أن يتعافى في أقرب وقت ممكن، وإلا فسيتعين علينا أن نرسل له الطبيب ونزيل جميع المشكلات»، وفي نهاية اليوم كانت أسهم ميتشيل المتداولة في بورصة نيويورك قد فقدت أكثر من ثلث قيمتها؛ أي ما يقارب ستة مليارات، لتهبط الأسواق المتراجعة أصلًا في روسيا.

أصدر ميتشيل بيانًا على الفور يعبر فيه عن ندمه، ويعِدُ فيه بمعالجة مخاوف رئيس الوزراء، لكن بوتين كان قد بعث برسالة واضحة؛ بأنه ليس لديه النية لرفع يديه عن الذراع التي توجه الاقتصاد الروسي، وسيتدخل كلما شعر بالدافع، مقوضًا جهود ميدفيديف المبكرة لتعزيز المناخ الأكثر جاذبية للاستثمارات، وقد أبدى ميدفيديف ومساعدوه دهشتهم من اعتداء بوتين.

سعى أركادي دفوركوفيتش، أحد كبار مساعديه، إلى تهدئة الأسواق، ولكن بعد ذلك بأيام كرر بوتين اتهاماته بأن ميتشيل كان يتهرب من الضرائب، وهو ما دفع أسهم الشركة للهبوط

مرة ثانية. تصرف بوتين كما لو كانت روسيا التي لا تقهر، جزيرة برخاء متزايد، عصيَّة على العاصفة المالية التي تختمر طوال الصيف منذ أن بلغ سعر النفط ذروته ووصل سعر البرميل الواحد إلى أكثر من 140 دولارًا.

الأزمة الاقتصادية العالمية الناجمة عن أزمة سوق الرهن العقاري في الولايات المتحدة في عام 2008م، بدا أول الأمر أن تهديدها للاقتصاد الروسي ضئيل؛ لأن مصارفها لم تصدر هذا النوع من الرهون العقارية عالية الخطر، التي أصبحت فاسدة، لكن إفلاس مصرف الاستثمار الأمريكي ليمان براذرز في 15 سبتمبر/أيلول- وتراجع أسعار النفط في اليوم نفسه لأقل من 100 دولار للبرميل- انعكست آثاره على أنحاء العالم، وضربت روسيا أكثر من غيرها، ومع نهاية اليوم التالي انخفض المؤشر الرئيس للبورصة بنسبة 17 في المئة. وقد أجبر البيع الناتج عن الذعر على تعليق التداول المتكرر خلال الأسابيع المقبلة، وعلى الرغم من تدخل الحكومة لدعم الأسهم، خسر السوق تريليون دولار في غضون أشهر.

بين أكتوبر/تشرين الأول وديسمبر/كانون الأول تسرب 130 مليار دولار من رأس المال خارج البلاد، في حين استثمر عدد قليل من الروس في الأسهم، مقارنة- على سبيل المثال- بالأمريكيين، الذين شاهد كثير منهم مدخراتهم تتبخر.

ضربت الأزمة الروس بقوة؛ من أفقرهم إلى أغناهم، وانخفض الدخل المتاح على الفور، وخفضت الشركات النفقات، وهو ما أدى إلى هبوط الإنفاق الاستهلاكي، الذي جعل الإنتاج يتقلص أكثر، حتى باتت القلة الميسورة المتبجحة «يرهنون يخوتهم ويبيعون طائراتهم الخاصة»[20]. وتلقى اقتصاد روسيا المزدهر ضربة عنيفة، حتى وجد بوتين نفسه يرأس انهيارًا خطيرًا شبيهًا تمامًا بأزمة عام 1998م، وبدا كأنه خاتمة لعقد الازدهار الذي دعم رئاسته.

في غضون أيام، وافقت الحكومة على 40 مليار دولار لدعم المصارف على صورة سندات ائتمان، و50 مليار دولار قروضًا، لـ 295 شركة تمثل 80 في المئة من اقتصاد البلاد. وكافح المصرف المركزي للحد من تراجع قيمة الروبل، واستنزف ما يقرب من 200 مليار دولار من

احتياطي العملة، ثلث 598 مليار دولار وصلت في أغسطس/آب. السياسات الاقتصادية الكلية المحافظة لبوتين؛ من الموازنات المتوازنة، وبناء الاحتياطيات، وصندوق اليوم العصيب، على الرغم من المناشدات الشعبية من بعضهم في الكرملين للإنفاق بحرية أكبر، أثبتت نفاذ البصيرة.

في تلك المرحلة كان بوتين يشعر بالضغط لإنقاذ القلة الأوليغارشية المفضلة، وإعادة تأميم الشركات المتعثرة التي حان الوقت ليتولى سلطتها بثمن بخس، ومع ذلك وقف مع المستشارين الذين طلبوا توخي الحذر، وطلب سيرجي غوروييف، أحد المستشارين الاقتصاديين للحكومة، في وقت لاحق: «تحويل مزيد من سلطة صنع القرار إلى أولئك الذين يعرفون شيئًا عن الاقتصاد، ويمكنهم أن يفعلوا شيئًا من أجله»[21].

الليبراليون المتحالفون مع ميدفيديف، ومن بينهم وزير المالية أندريه كودرين، يبدو أنهم قد انتصروا على المدى القصير، ولم يحدث أيٌّ من التوقعات السيئة بالانهيار الاقتصادي، ومع ذلك كانت الكلفة باهظة. انكمش الاقتصاد الروسي بنسبة 8 في المئة عام 2009م، وهو أسوأ أداء بين أكبر عشرين اقتصادًا في العالم. ولأول مرة تراجعت شعبية بوتين جدًّا؛ متأثرة بالسخط الشعبي في بعض الأحيان الذي امتد إلى الشارع، حيث احتج العمال على عدم دفع أجورهم. في السنوات الثماني التي قضاها رئيسًا للبلاد، كان بوتين دائمًا قادرًا على صرف الانتقادات الموجهة إلى الحكومة، التي يرأسها رئيس الوزراء، واليوم هو من يشغل هذا المنصب، ومن ثم فقد عكس اللوم إلى مكان آخر؛ فهاجم ما عدَّه سببًا خارجيًّا لمشكلات روسيا: الولايات المتحدة.

في أكتوبر/تشرين الأول، اتخذ خطوة غير معتادة حين زار مجلس النواب (الدوما)، واجتمع مع الشيوعيين لكونهم كتلة نيابية، وهي المرة الأولى التي يجتمع فيها بهم خلال السنوات التي قضاها في السلطة، وقد عكست هذه اللفتة خوفه من تأثير الأزمة في

الناخبين- من المتقاعدين والعمال، وأولئك الذين لديهم الحنين إلى العهد السوفييتي- الذين أيدوا تولي حزب المعارضة الوحيد مناصب قيادية.

الزعيم الشيوعي غينادي زغانوف، دعا بإخلاص إلى مزيد من الإنفاق على الصناعات الرئيسة، مثل الصناعات الزراعية، معربًا عن أسفه من تراجع إنتاج روسيا من الحصادات والجرارات إلى ما دون إنتاج روسيا البيضاء، وندد بـ(السياسة النقدية) غير الفعالة لكودرين للسيطرة على تداول الروبل (وانتهز أيضًا الفرصة لمناشدة بوتين التخفيف من مضايقة مرشحي حزبه في الانتخابات الإقليمية)، ومع ذلك كان بوتين قليل الاهتمام بالمقترحات الشيوعية، وقد كان زغانوف هو وفريقه مصدر إحباط له؛ إذ يبعثون له برسالة شعبويَّة.

أشار زغانوف- في خطاب طويل له- إلى أنه عندما اجتاح الولايات المتحدة الكساد العظيم، أرسل فرانكلين ديلانو روزفلت «أفضل مستشاريه الاقتصاديين» إلى الاتحاد السوفييتي لتعلم شيء أو اثنين، ولكن الكارثة اليوم في الجشع الرأسمالي الأمريكي المتهور الذي جاء بالمصائب إلى هذا العالم. بوتين والكاميرات التي تحوم حوله، كان سعيدًا للتوافق على هذه الفكرة، وقال له: «لقد أصبتَ في نقطة مهمة عندما قلت إن الإيمان بالولايات المتحدة زعيمًا للعالم الحر واقتصاد السوق قد اهتز، فضلًا عن اهتزاز الثقة بوول ستريت بكونها مركزًا لهذا العالم»، وأضاف: «إنها لن تُستعاد، وأنا أتفق معك هنا؛ فإن الأمور لن تكون نفسها مرة أخرى».

أبرزت الأزمة نقاط الضعف الهيكلية الكامنة في الاقتصاد الروسي؛ باعتماده على موارد الطاقة، والقاعدة الصناعية المتداعية، والفساد المستشري، وتآكل البنية التحتية (كان البلد لديه بضعة أميال من الطرق المعبدة في عام 2008م، أقل مما كان عليه في عام 1997م)[22]. وقد رأى الاقتصاديون، مثل سيرجي غوروييف، أن روسيا يجب أن تتعلم الدروس المستفادة من الأزمة، وتحدث تغييرات ذات مغزى، وقد وافق مستشارو ميدفيديف في الكرملين، مثل أركادي دفوركوفيتش[23]؛ فالاقتصاد الروسي يحتاج إلى سيادة القانون، وحماية

حقوق الملكية والعقود، والمنافسة الحقيقية والشفافية، وبعض القيود على المسؤولين المفترسين والفاسدين الذين أطاحوا بالشركات واستنزفوا أرباحها إلى جيوبهم الخاصة، وإخفاء العائدات غير المشروعة للملكية الأجنبية والحسابات الخارجية السرية، وكان فريق ميدفيديف في الكرملين قد اقترح مسوَّدات لمعالجة بعض هذه القضايا على الأقل.

في أول خطاب وطني له، ألقاه بعد انتخاب باراك أوباما بيوم واحد، دعا إلى تحرير الاقتصاد، وتخليصه من البيروقراطية التي نمت تحت قيادة بوتين، وأضاف أن «بيروقراطية الدولة منذ ما قبل 20 عامًا تسير على النهج نفسه من انعدام الثقة بالفرد الحر والمشاريع الحرة»، وقال في الخطاب، الذي أُجِّل مرتين بسبب الأزمة المالية: «الدولة القوية، والبيروقراطية القوية، ليست هي الشيء نفسه؛ الأولى هي الأداة التي يحتاج إليها المجتمع للتطوير، والحفاظ على النظام، وتعزيز المؤسسات الديموقراطية، أما الثانية والأخيرة فهي خطيرة للغاية»[24].

الأزمتان التوأمان لفصل الصيف والخريف، على أي حال، عطَّلتا التطلعات السياسية لميدفيديف؛ وقد وضع مساعدو ميدفيديف المقربون اللوم على الأزمات في عرقلة برنامجه، لكن بوتين كان العقبة الكبرى. تفحص بوتين مسودات أول خطاب رئيس لميدفيديف في نوفمبر/تشرين الثاني 2008م، وهو ما لم يكن يفعله أي رئيس وزراء عندما كان رئيسًا. أصر على لغة متشددة تجاه الولايات المتحدة والغرب عمومًا، وهذا ما جعل ميدفيديف غير مرتاح، ومن هنا فقد هدد بنشر الصواريخ في كالينينجراد[25].

كان بوتين قلقًا من التداعيات السياسية للانكماش الاقتصادي، ومن ثم فقد أصرَّ على إدراج مقترح آخر في خطاب تلميذه، مقترح مرسوم ليكون صمام الأمان المحتمل في حالة الفوضى الاقتصادية التي تهدد النظام السياسي نفسه، ولم تكن المسودات الأولى تشمله؛ إذ كان بوتين قد اقترحه خلال اجتماعه مع ميدفيديف قبل الخطاب بيوم، وعندما أسقط ميدفيديف ذلك المقترح في خطابه- أسقط جملة واحدة من خطاب يتجاوز ثمانية آلاف

كلمة- لم يعلم حتى أقرب مساعديه بأنه آت[26]. دعا ميدفيديف إلى تعديل الدستور، وهو ما قاومه بوتين دائمًا، وعلى مدى سنوات، على الرغم من المناشدات العديدة؛ مصرًّا على أن ذلك من شأنه أن يقوض الاستقرار السياسي. وكان التغيير المقترح هو تمديد ولاية الرئيس في منصبه من أربع سنوات إلى ست سنوات، وتمديد تعيين أعضاء مجلس الدوما من أربع سنوات إلى خمس. لم يقدم ميدفيديف أي تفسير لهذا التغيير، إلا أن عددًا من الديموقراطيات، مثل فرنسا، مُدَدها الرئاسية أطول، وأصرَّ في وقت لاحق على أن التعديلات والتغييرات الأولى للدستور منذ صياغته في عام 1993م، لم تكن سوى (تعديلات) «لا تغير الجوهر السياسي والقانوني للمؤسسات الحالية». في الواقع، عززت كذلك الرئاسة، وقللت من وتيرة الدورات الانتخابية التي كان بوتين يخشى أن تصبح محورًا لـ (ثورة ملونة).

فاجأ الاقتراح النخبة السياسية، ولا سيما أن أحدًا لم يفهم الهدف من وراء ذلك، وكان من بين التكهنات أن الهدف النهائي هو تمهيد الطريق لعودة بوتين إلى الرئاسة، بعد أن يفجر ميدفيديف مفاجأة بالاستقالة. نُفِّذ التغيير- مثل العمليات الخاصة الأخرى لبوتين- بسرعة وخلسة، وفي غضون تسعة أيام وصل الاقتراح إلى مجلس الدوما، ولم يعترض عليه سوى الشيوعيين، وهم الذين كانوا سندًا مطواعًا قبل أسابيع فقط من معارضته. ومع نهاية العام مرَّ التغيير بمجلسي الشعب والشورى، مع القليل من الجدل، ومن غير مداخلات عليه من الجمهور، من دون شك. حاول الديموقراطيون المحاصَرون حشد الاحتجاجات ضد التعديلات، وكذلك ضد إخفاق الحكومة بتغيير مسار الاقتصاد، لكنها واجهت مضايقات لا هوادة فيها من الكرملين ووكلائه، وخصوصًا فئات الشباب التي رعاها الكرملين.

في ذلك الشتاء الساخط حاول غاري كاسباروف، وبوريس نيمتسوف، وفلاديمير ميلوف، وغيرهم، تأسيس ائتلاف معارض جديد، على أمل استغلال الأزمة الاقتصادية لتلتحم معًا بحركة منشقة، وصفوها بأنها التضامن، بعد الجماعة المعارضة في بولندا، التي أُسست في قتامة عامٍ من الأحكام العرفية، ولكنها ظلت معارضة شديدة الانقسام، تستهلكها

الخصومات الشخصية، ومختلفة على التكتيكات. بعض نقاد بوتين لا يزالون يأملون في العمل داخل النظام لإحداث التغيير، وأراد آخرون أن تشتعل ثورة، ولا يزال آخرون يرفضون الانضمام بسبب كراهيتهم الشخصية لكاسباروف أو كاسيانوف. عقدت (التضامن) في نهاية الأسبوع مؤتمرًا تأسيسيًّا واحدًا في ديسمبر/كانون الأول، ولكن كان لا بد لعقده من ممارسة أعلى درجات الحيطة والسرية بالنسبة إلى الموقع والتوقيت، وكانت الجهود السابقة للاجتماع فسدت عندما ألغيت الأماكن بعد مكالمات هاتفية من السلطات. التكتيكات حتى ضد حركة معارضة هامشية أبرزت قلق الكرملين، ولكن في الوقت نفسه أظهرت قدرتها على إخماد أي محاولة لتنظيم الشعور المناهض لبوتين. عندما اجتمع قادة التضامن أخيرًا في مركز المؤتمرات في ضاحية خيمكي، وصلت حافلة تقل نشطاء من الحرس الشباب، المنتمين لحزب روسيا المتحدة، بقصد مضايقة الحضور؛ وحُمِّلت حافلتهم بالغنم، وكانوا يرتدون القبعات وقمصان الـ(تي شيرت) مع شعار تضامن، وارتدى محتجون آخرون أقنعة وألقوا الموز، وهي أول التلميحات العنصرية إلى الرئيس الأمريكي الجديد، وهو الرئيس الأول من التراث الأفريقي الذي يتولى المنصب؛ وكانت الرسالة فظة، ولكنها واضحة: أن المعارضين لبوتين حيوانات ترعاها اليد الشائنة للولايات المتحدة. دفع النشطاء الخراف من الحافلة، فأصيب كثير منها أو مرض، وراحت تلك الخراف تترنح وتثغو على الرصيف، حيث مات عديد منها[27].

في 30 ديسمبر/كانون الأول قبل عطلة العام الجديد، وقَّع ميدفيديف التشريعات التي غيرت الدستور، وتحول التغيير الأكثر جوهرية في النظام السياسي في البلاد منذ إلغاء بوتين لانتخابات حكام الولايات في عام 2004م؛ من اقتراح إلى واقع في أقل من شهرين، وكان واضحًا في أقل من عام على توليه الرئاسة، أن ميدفيديف كان مجرد شريك صغير (يترادف) في حكم البلاد.

بوتين قد يؤجل ظاهريًّا منصبه في رئاسة الدولة، لكنه يستحوذ عليه باستمرار، وفي ديسمبر/كانون الأول، ذهب بوتين قدمًا في ظهوره السنوي في نهاية السنة، فوصله سبعون

سؤالًا على الهاتف، من مختلف أنحاء البلاد، فحصها بعناية في بث تلفازي حي على الهواء مباشرة، وتعهد بأن آثار الأزمة الاقتصادية سوف تكون ضئيلة للغاية، واعدًا برفع المعاشات، وبمساعدات للعاطلين عن العمل.

قوض أداء بوتين السلطة السياسية لميدفيديف، وهو ما جعل من الصعب عليه ترويض البيروقراطية التي يريد تغييرها. ميدفيديف لم يظهر اعتراضاته علنًا البتة، لكنه أعرب عن الإحباط لمن حوله خصوصًا، وعن استيائه العميق لأقرب مساعديه للتدخلات التي واجهها باستمرار من مكتب رئيس الوزراء. كافح ميدفيديف لحشد المؤيدين من البيروقراطيين، ولكن الموالين لبوتين احتلوا عددًا من الأماكن، حتى داخل الكرملين. وبعد الحرب في جورجيا، أظهرت استطلاعات الرأي السرية أن الجيش الروسي كان «يتعلق بالذريعة المطلقة»؛ من ضباط القيادة إلى القائد الجديد للقوات المسلحة، فالسلطة تقع في نهاية المطاف في البيت الأبيض اليوم، والجميع يفهم ذلك. في كلمات لاذعة من دبلوماسي أمريكي، كان ميدفيديف «يؤدي دور روبن مع باتمان بوتين»[28].